CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

٣ (١)

ما أغرب هـذه الحاجة (ولعلها حاجة غريزية) التى تضطر الناس إلى أن يضعوا على وجه الحق البيّن قناعاً كاذباً مضللا . وكأن النظر إلى ما هو واقع ، أو مجرد قراءته يؤذيهم ويصدّهم ، فهم لا يقبلونه ولا يطيقونه . إنما يرضون عن الأقاصيص التى تقصّ لهم حوادث الجنيّات الساحرة ، فهم فى حاجة إلى الصور التى تسحر العيون وتخلب العقول . أما الضوء الواضح الذى يكشف عن أدق التفاصيل المتوارية ، ويبعث الظلال القوية ، فانه يخيفهم . وهم مؤثرون على الحق الواقع جميع ألوان الريبة البسيكولوجية ، وجميع ضروب النفاق الفسيولوجى . ليس فى حياتهم الخاصة فحسب ، بل لعلهم يؤثرون ذلك بنوع خاص فى الكتب التى يقرؤنها . وهم يطلبون تارة إلى هذه الكتب أن تكون لها مزايا المخدّر وآثاره ، ويتطلبون منها تارة أخرى أن تذرّ الرماد فى أعينهم ، يريدون أن ينقلوا إلى عالم آخر ، لا يعنيهم فى ذلك أن يكون هـذا العالم قد تجاوز قدّهم ، أو أن تكون الأشباح التى تضطرب فيه قد فقدت ما تمتاز به أشخاص الحياة الواقعية من قوة وغموض .

ومن ذا الذى ينكر أن الحياة قد تكون أحياناً أشد فتنة مما تجرى عليه عادة ! فلها ذرى بهجة وتألق . وبين الحين والحين ينجم من اطرادها الفاتر العام أشخاص ممتازون يتجاوزون الحدود الطبيعية ، كما تظهر ألوان من الإخلاص عجيبة ، ومن الشعور الذى يفوق الطاقة الإنسانية . ولكن أهذا هو مقياسها الطبيعى ؟ كلا ! فان فيها ، بل وفيها أكثر من أى شئ آخر ، هموماً وضيعة ،

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٥ (يناير سنة ١٩٤٦) .

وأعراض ركود . وعندئذ يستطيع أشد أشخاصها بروزاً أن يخلعوا عن أنفسهم حليهم الذهبية وثيابهم المزركشة ، وأن يتجردوا من هذا البهرج الذى بهروا به الناس ، فيرتدوا أسمالهم اليومية الرثة البالية التى تخيب لها الآمال ، ويضطروا إلى حياة قبيحة بشعة .

فأى عجب إذن فى أن يتزع المؤلفون إلى أن يبعثوا فى كتبهم ، وإلى أن يصوّروا فيها كل ما يجيش فى ذهن الإنسان ، أو ما كان راكداً فيها ، كل ما اتصّل بأعماله الظاهرة أو بحركاته الداخلية الخفية ، بأفكاره الخارجية الواضحة أو بأشد وساوسه ارتباكا ! وأى عجب فى أن يطمحوا طموحاً عالياً إلى الملاءمة بين الأضداد وتناول أرقى الحالات وأدناها بنفس الرغبة الاستطلاعية وبنفس روح التفهم فى كلا الحالين ! فكل شئ قائم فى الإنسان ، متناوباً أو مقترناً . وإذا لم يصل هؤلاء الكتاب بعد إلى أن ينسوا هذا الأمر فلعل مرجعه أن الحياة بدلا من أن تقتصر على أن تظهر لهم ضوءها وحده أو ظلمتها وحدها كما تبدو للكثيرين ، قد غمستهم فى النور والظلمة دولة واقتراناً .

وقد مكنتهم هذه الحياة من الاتصال اتصالاً يزداد توثقاً على مرّ الأيام (وكثيراً ما يكون اتصالاً مرّاً شنيعاً) بما تشتمل عليه من تعدّد وتعقّد . ومتى انتهى هؤلاء الكتاب ، إما بدافع المزاج أو الوراثة أو على أثر فاجعة فى تربيتهم ، إلى أن يغشوا جميع الأمكنة . فيترددون فى نفس الوقت على الصالونات الفخمة والمآوى الحقيرة ، كما يدخلون غرف السيدات ومصانع العمال ، يختلطون بجميع الأوساط ، ويعرفون جميع ألوان القلق النفسى واللذة والاشمئزاز والمتعة . تعرّضوا لجميع ضروب الحظ وسوء الحظ ، لجميع أنواع الاستطلاع وعدم الاكتراث ، كما عرفوا جميع أشكال الحرية والتقييد . سمت عقولهم حتى بلغت أقصى درجات الشغف ، كما انخفضت حتى زحفت فى الوحل . وهم يريدون أن تحفل كتبهم بهذا كله . نعم ! هم يعافون منذ الآن ان يقتصر تصويرهم على ناحية كلها فضيلة كما يعافون تصوير عالم يقتصر على الرذيلة دون سواها ، على بيئة مائعة من المتكلفين المتصنعين أو من الخليعين المتهتكين ، على بيئة كلها قديسون أو كلها خاطئون ، على بيئة منظمة أو أخرى مضطربة ، على بيئة رقيقة رفيعة أو أخرى فظة غليظة . فاذا ما أوتوا من القوة والبراعة حظّاً كافياً ، وكانت شخصيتهم من الغنى والخصب والتنوع بحيث يقدمون على هذه المغامرة ، فإن العالم الذى

سيعرضونه علينا سيكون متعة ذهنية لنا ، وسيتألف من جميع البيئات الممكنة . سيكون عالماً جديداً فى إنشائه ، فيعوضنا من هذا العالم اليومى الذى تفنى فيه حياتنا .

ولنؤمن لهم ؛ فقد أطالوا التفكير فى الصعاب التى تعرّضهم لها هذه المغامرة. وهم قد احتملوا من غير شك أكثر من غيرهم هذا النير الثقيل الممض الذى تفرضه الجماعة على أفرادها حين ينحرفون عن الطريق القويم . فمن الناس من يتكلفون الفضيلة عن غفلة أو عن نفاق ، وهؤلاء يتأذون عندما يخيل اليهم أن رجلا يجنح إلى التحرر من مواضعات اللياقة العتيقة ، حين يقرّر أن يتخذ شيئاً من الحرية فيما بينه وبين نفسه أو مع غيره من الناس . فليس يكفيهم أن ينبذوا « المركيز دى ساد »[1] أو « رستيف دى لابريتون »[2] ، ولكنهم يقنّعون وجوههم حين يرون « بروست » أو « جويس » يتعمقان الطبيعة الإنسانية ويقتحمان طرقاً كانت مواضعات السلوك تنكرها حتى ذلك الوقت . يثورون على هذه الدقة التى يسمونها مجوناً ، وعلى هذه الصور المشتقة من صميم الحياة التى يسمونها أقذاعا ، ويعلنون أن تشريح نفوسنا وعرضها على هذا النحو لا يمكن الاّ أن يسمم العقول ، وإذا لم يكن من هذا بد فإيثار الصمت خير . ولعل هؤلاء المتكلفين المنافقين إن أتيح لهم من السلطان بعض التأييد أن يفرضوا على الأدب رقابة تصطنع مظاهر العفة . وقد دلت التجربة على أن مثل هذه الرقابة تلحق بالأدب أضراراً جسيمة فى كل مرة ظهرت فيها ، حتى إننا لنخجل لها من عنفها الضيق المحدود الأفق ومن عدم تسامحها . إن التعصّب والطغيان إن لم يصلا قط إلى منع الحقيقة من الفوز والتحرر آخر الأمر حتى حين يعتمدان أشد العنف ويلجأن إلى التحريق .

وإذ يعجز هؤلاء الغافلون والمنافقون عن أن يبلغوا أقصى غاياتهم فى تنفيذ نواهيهم ، فانهم يحتمون فى الأقل على الفنّان الذى ينتفع فى آثاره بما فى الحياة

---

(١) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر توخى فى آثاره تصوير أقبح ما فى الحياة الانسانية من الفظائع والآثم .

(٢) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر عدل عن أسلوب معاصريه إلى أسلوب له حظ عظيم من الصراحة ومواجهة الواقع .

من قبيح مرذول ، أن يهضم ذلك ويتمثله قبل أن يحاول عرضه أوالتعبير عنه .

ومسألة المستساغ وغير المستساغ فى الفن مسألة أخرى لا تقل دقة وشأنا . وما أكثر الذين يعجبون إعجاباً شديداً بطائفة من الكتّاب شهدوا أبشع المناظر (مناظر الرق والهمجية وما فى الحواضر من البؤس والشهوات المخزية وهوان الفكر والانغماس فى اللذات والإفراط فى العربدة والفسوق) فلم يصوّروا فى كتبهم ما رأوا ، وإنما صوّروا فيها شعورهم به على نحو جعل هذه الكتب ، وإن ظلت فاجعة ممزقة للنفوس ، تبدو كأنها تسبح فى عالم خيالى غير واقعى له سحره الذى لا ينكر . وإذ كانوا أشد إخلاصاً من أن يصوّروا عالماً يلائم مثلهم العليا ويعرفون أن هذا العالم لا يوجد ، فهم قد أزمعوا الفرار نهائيًا من كل ما يجمعهم بالعالم الواقعى . وما داموا لا يستطيعون الاكتفاء بعالم بعيد عن الكمال الذى يبتغونه له ، فقداختاروا أن يضطروا أنفسهم فى شىء من الأثرة إلى تفضيل الانخداع بالمظاهر على الحق . لم ينظروا إلى الأشياء كما هى ، وإنما أبوا إلا أن ينظروا إليها كما يحبون أن تكون ، فلجأوا إلى أبراج عاجية من مذاهب الفن يعتصمون فيها ، فهم يستعينون بأعذب الألفاظ وأبعد الصور خفاء . يشوشون ورق اللعب ، ويغشون «الظهر» ، ويتلفعون فى عباءة من الاستعارة ، ويتحوّلون إلى أرواح خالصة ، ويتشدّقون بالروحانية كأنهم جنّ أو سحرة من عالم غير عالمنا هذا ، وكأن طبيعتهم من جوهر علوى ممتاز . كل ما تجرى به أقلامهم مثالىّ محجب غير واضح الخطوط ولا بيّن الملامح . وقد يمزّق نفوسهم ما فى الحياة الواقعة من ألم وبشاعة ووحشية ودعارة . ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يصونوا كتبهم من هذه الأوزار . أيديهم اليمنى التى تكتب تجهل ما تمسه أيديهم اليسرى التى لا تكتب . أرجلهم غائصة فى الوحل بل فى الدم أحياناً ، ولكن رءوسهم فى السماء . هؤلاء على الأقل هضموا ما يلفظه العالم من قبح . وإذا أعجزهم أن يرفعوا أشخاصهم فإنهم لم يترددوا فى أن يكذبوا على أنفسهم ليرفعوا أشخاص قصصهم .

وليس كل إنسان قادراً على التلاعب بالألفاظ بهذا اليسر .

وكتاب آخرون بلغ تعطشهم إلى الطُّهر والمثل الأعلى والحق المطلق حدًّا جعلهم يذعرون لمجرد الاقتراب من الحياة الواقعية العادية . لا يستطيعون أن يفتحوا أعينهم أو أن يمدوا أسماعهم دون أن يعتريهم غثيان . يرون كل بغيض

فى الحياة شيئاً لا يقبل . وينتهى بهم هذا إلى العجز عن التحول عن الواقع الشنيع . وهم من أجل ذلك لا يكادون يمسكون القلم حتى يخلّصوا أنفسهم فى غير تردد مما تضيق به نفوسهم ولا يغرون بالألفاظ ؛ فالألفاظ أمامهم يستعملونها كما هى فى مدلولها الساذج الأصلى سواء كان ما تدل عليه قيما أو متبذلا . فليست الألفاظ إلا وسائل ، وليست هى الغاية الأساسية ، إنما الغاية الأساسية هى هذا السرطان الذى ينخر جسم الإنسان . يجب مهما يكلف ذلك من ثمن إخراج الصديد من هذه الجراح المتقيحة ، وفتح هذه القروح وتفريغ هذه الأمعاء .

ولا ينبغى أن نورّط أنفسنا فى الخطأ . فمهما تدنست أيدى هؤلاء الكتاب فى هذه المهمة الكريهة ، ومهما اشمأزوا من أنفسهم بسبب القذارة التى يكشفون عنها ، فإنهم مع ذلك أشد ما يكونون تلهفاً إلى الجمال البعيد المنال . فهم لا يزالون يتمنون اليوم الذى يتاح لهم فيه أخيراً ألا يكتبوا إلا ألفاظاً كلها حنوّ ورشاقة وهدوء ، كما يفعل غيرهم . ذلك اليوم الذى يكفّون فيه آخر الأمر عن مثل هذا العلاج القاسى . ولكن ليس هذا كله ، مع الأسف ، إلا أحلاماً وأوهاماً . فهم أنفذ بصيرة من أن يعتقدوا أن يوماً قد يأتى قبل وفاتهم تهدأ فيه نفوسهم وأجسامهم هدوءاً تامًّا ، ويستطيعون أن يحيوا فى عالم مطلق غير مقيد . والكتب التى تخرج من أعماق الشقاء الذى يغرقون فيه ليست إلا منافذ يخلصون بها أنفسهم من شر ما تلقى .

يأبون أن يستسلموا لما فى الحياة من بشاعة كما يفعل أولئك الذين ينحازون فى أثرة وجبن إلى هذه الناحية العذبة الراقية ، ناحية الفن للفن . ويفضلون أن يُغنوا آثارهم بكل ما بقى فيهم من شر ليظهروا بذلك أنفسهم منه . وهم فى هذا على العكس من أولئك الذين يجيدون كتابة النثر الرفيع والشعر البديع والذين تزداد قلوبهم سواداً إلى سواد ونفوسهم فساداً إلى فساد . فكيف يلامون على ما يلفظون فى كتاباتهم ! لا يمكن أن يقال إنهم مدفوعون إلى ذلك بالرغبة فى العرض والإظهار ، أو الإمعان فى التلذذ بالرذيلة ، أو أن مرجع ذلك تشويه ملازم لطبيعتهم ، أو ابتذال فى فكرهم . إنما يتوخون فى عملهم هذا دقة عجيبة تقدّم تعلم الحياة والتمرس عليها على تعلم الفن ومكابدة مصاعبه . وتلك إرادة تصمم على التذكير أن لا شىء فى الانسان أعظم من الإنسان . وهؤلاء

الكتاب لايحفلون بآيات البيان ، بل يسعون فى محاولة يائسة ، ولكنها كريمة ، إلى أن يشقوا لحياتهم طريقا قد تصير هذه الحياة نفسها فى نهايته من آيات البيان .

قد يعترض علينا بما يأتى : ما مصلحة محب الأدب الرفيع فى هذا النوع من الكتب ؟ وجميل بلا شك أن يجعل المؤلف من حياته آية من آيات البيان ، ولكن ما نتيجة ذلك آخر الأمر ؟

وقد وجه الكتاب القصصيون المحدثون لأنفسهم هذا الاعتراض ، واقتنعوا دون صعوبة بأن آثارهم لو أنها غرقت فى الدمامة فلن يستطيعوا النظر إليها إلا مشمئزين . وأغلب الظن أنهم سينتهون بالعدول عن الكتابة وإيثار الصمت . وإذا بقيت لديهم بقية من همة الكتابة فذلك لأنهم لم يفقدوا الأمل (وهو دائماً أمل لا يتخلله وهم) فى أن يتجاوزوا مألوف الحياة ويأتوا بشىء جديد . ومهما تأذوا مما يتبينون من دنس ومن رذيلة فى أنفسهم ومن حولهم فإنهم يشعرون (ولعلهم فى شعورهم هذا أشد إحساساً من غيرهم) بهذه الصور المضحكة الممسوخة بهذا البذخ المفرط ، وبألوان السعادة هذه التى قد تمنحها الحياة أحياناً . وهم يرون أن أى أثر يتعمد فيه وصف القذارة ، أو اتخاذ موقف التعنت المرضى السقيم ، أو تصوير الوساوس الإجرامية أو الجنسية ، لا يزيد فى قيمته عن التزين التافه المائع الذى يظهر فى تلك الأقاصيص التى تقرؤها الأسر مجتمعة فى المساء من حول النار .

على أنهم لا يدّعون احتكار الحق كله ؛ فهم لا يريدون أن يتبعهم جميع الكتاب فى هذا السبيل ، بل يريدون احترام مبدأ حرية الاختيار . يريدون أن يتركوا مجالا لهذه الآثار التى أنشأها كتّاب من أولى البصائر النافذة ، والتى تعبر عن نظرة للعالم وتصور له لا تفرضهما الطبيعة بل يختارها الكتّاب لأنفسهم اختياراً وهم يعرفون ما يقدمون عليه . فهم يعلمون حق العلم أن جميع الكتاب الآخرين الذين أذعنوا لمزاجهم أو تأثروا بظروف مولدهم أو نشأتهم ، كتبوا هم أيضاً كتباً قيمة . وهم لا يؤاخذونهم بقصورهم ولا باصرارهم على بعض اللوازم ، بل يقبلونهم كما هم ، ويقدرون كتبهم على أنها وثائق دقيقة . فالعالم الذى يصوره مريديث أو جيمس كله عن الطبقة الوسطى البورجوازية . وعالم كالدويل أو دابيت كله عن

طبقة العمال . وعالم ديكنس شعورى . وعالم سترنس أو باتلر كله تهكى . وهو عند جيد أو هكسلى عقلى . وعند تشيكوف فهو إقليمى . بينما عالم كافكا قاصد كله إلى ما وراء الطبيعة . وهو عند دستويفسكى شيطانى . وعلى عكس موريس مارتان دوجار فعالمه يصور الأسرة . وعالم مالرو يصور البطولة ، بينما هو عند لورنس جنسى . ولكل منهم ناحية صدق واقتضاء وضرورة .

كما أن هؤلاء الكتاب القصصيين يرون أن القارئ حر فى أن يؤثر الكتب التى لا تقتصر على الحياة اليومية الجارية ولكنها تبعد عن الواقع المألوف . فالقارئ حين يأخذ كتاباً إنما يلتمس فيه ما يريحه أو ما يعينه على الهرب من الحياة المحيطة به . وهذا العالم الخيالى الذى يستكشفه فى الكتاب ، وهذه الدمى التى على هامش الحياة ، وهذه الصور البيانية نفسها حتى حين تكون انفعالات مغرقة فى الحماسة ، كل هذا جذاب ، بل هو جذاب لهذا السبب نفسه . فالقارئ لا يلتمس فى مثل هذه الكتب شخصيات محققة ، وإنما يريد أن يفقد شخصيته هو فيها . ولا يفجؤه أن يتجاوز أشخاص القصة الحجم الطبيعى المألوف ، أو أن تتخذ الألفاظ التى ينطقون بها والمناظر التى يضطربون فيها صورة الملحمة ، بل أن يتشخص الحيوان والنبات وعناصر الطبيعة نفسها . كما لا يفجؤه أن يدخله الكتاب فى بيئة لا تنعكس الحياة فيها إلا مشوهة ، قد شوهتها هذه المرايا المحرفة وهى مرايا التشبيه الشعرى والعبث الغليظ ، والمرايا التى تعكس اشباح الموتى وظلال الوهم . بل لا يفجؤه أن يدفع إلى أغرب ما ينسجه الخيال من ألوان الخلط والقتل والخلاعة والاختطاف والخراب والثروة .

فالقارئ مستعد دائماً لأن يتخذ لنفسه إهاباً غير إهابه (يكاد ذلك يرجع إلى فطرته) وهو مستعد لأن يخلبه السحر ، ويقهره التسلط ، ويستهويه اللعب .

فمن الجائز جداً أن يمتنع القارئ على قصصيين لا يريدون أن ينقلوه إلى أى مكان ، بل يقتصر همهم على أن يبصروه بنفسه وأن يجلوا أمامه مرآة لا رحمة فيها ليس لدى هؤلاء الكتاب لعب يدعون إليه . ليس فى وسعهم أن يحولوا الرجل أو المرأة إلى تمثال من ملح ، أو إل قطر من ذهب ، أو إلى طائر أزرق ، أو إلى حسناء نائمة فى الغابة ، أو إلى قط منتعل ، أو إلى إهاب حمار [1] . لا يبتغون إلا

(١) يشير بهذا كله إلى الأقاصيص والأساطير المعروفة فى الآداب القديمة والحديثة .

أن يرفعوا له الستار عن الوجود مصوراً فى شكله الجديد ، بما ينطوى عليه من اضطراب وإخفاق ، من طموح وانحدار ، من حلم وعمل ، من يأس وخيبة أمل .

ومع ذلك فلن يستسلم هؤلاء الكتاب ، لأنهم يذعنون لمقتضيات الاخلاص والصدق . هم يلتمسون نماذجهم عند أى فرد من الأفراد ، فى أى ظرف من الظروف ؛ لأنهم يرون فى غير تردد أن لا خطر لشىء ، وأن الحياة لا تستحق الإغراق فى العناية بها ، وأن اتساق الحوادث ليس أجل خطراً من الآراء التى تناقش ولا من البدع ولا من الأهواء . وهم من أجل ذلك يضعون يد القارئ على سخافة الحياة التى يذعن لها الفرد أو التى يختارها لنفسه ، وغرور ما يبذل من الجهود للتحرر منها ، ومبلغ ما يصطنعه مع ذلك من مثابرة فى سبيلها ، بل طموحه الرفيع إلى إدراك مستوى إنسانى ممتاز ، ثم تبينه فى الوقت نفسه أن بلوغ هذه الغاية مستحيل .

فأنت ترى ما فى مثل هذه المحاولة من شجاعة ومرارة . فهى حقًا محاولة من صمم على ألا يتخلص من أى تبعة ، وأزمع على ألا يتراجع أمام أى حادث ، أمام أى استكشاف . فلا شك أن هذا التصميم يفيد آخر الأمر فى تمكين الناس من أن يعرفوا بعضهم بعضاً .

ولنقرر أيضاً أن فى هذه المحاولة مقاومة حاسمة لأولئك الذين يعللون أنفسهم بأوهام السراب ، ويركدون فى سحب الخيال ، ويحتجون بأن الحياة اليومية تبدو لهم غير محتملة فيبنون لأنفسهم ، فى شح ، عالماً صناعيًا مفتعلا ، عليهم مع ذلك أن يخرجوا منه فى كل لحظة ، رضوا أو لم يرضوا ، لينغمسوا كغيرهم من عباد الله فى ألوان شنيعة من القبح تتركهم متخاذلين مضطربين فى حيرة من أمرهم .

ولنقرر أنها حاجة ملحة تدعو إلى مواجهة الحقائق المرة ، ويستعان بها لقهرها ، وإلى استبعاد ما يحيط بالأشياء من مظاهر خداعة ليصلوا إلى حقائقها .

ولنقرر آخر الأمر أنها محاولة (لعلها ما زالت فى حاجة إلى الحذق) لإنشاء عالم يشعر الواقع فيه بما ينطوى عليه من غرابة ومن قوة دلالة فى آن واحد .

وكل من المقاومة هذه ، والحاجة الملحة ، والمحاولة ، يقتضى حتما شيئاً من القسوة ، ويقتضى بطريقة غير مباشرة شيئاً من الحنو .

ينشأ من ذلك بالقياس إلى الكتاب الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم

على هـذه الأمور فى غير ضعف ، مذهبان فى الفن والأخلاق يتصلان بسلوك الإنسان ويدعمهما فى الأثر المكتوب نفسه تشريح لارفق فيه وابتكار وتجديد فى الأسلوب الانشائى تبعثهما ممارسة الحياة اليومية . ولكن هذا الابتكار وهذا التجديد فى سبيل المحافظة على الحق لا يسترسلان فى تصوير الإنشاء الفنى على شكل مثالى أعلى ؛ فقد يكون هذا التصوير شعريًا ، ولكنه خداع مغرّ . لا يضيرهم فى ذلك أن يتهموا بالقصور عن معرفة أسرار الألفاظ والصور ، وعن إدراك سحر الأفكار . فلا يقتصرون إذن على درس نفسية الفرد أو الجماهير ، بل يدرسون الوجود من الناحيتين الفسيولوجية والبسيكولوجية . لا يقتصرون على كائن حىّ فى نفسه أو على جماعة بعينها ، إنما يدرسون الكائن الحى فى نوعه .

وينشأ عن ذلك بصفة خاصة أن هؤلاء الكتّاب سيترفعون فى إباء عن كل ما يشبه أن يكون اغتصاباً للسلطان . فالكائن الحى الذى سيسعون إلى إعادة تصويره يجب أن يظل حرًا فى التصرف فى نفسه . فلا ينبغى أن يوجه فى اتجاه أو فى آخر عن طريق القهر أو بدافع نزوة ، أو أن يستغل لأغراض نظرية أو لأهداف مغرضة ، أو أن يستعمل لإثبات أمر . كما يجب بلا شك أن يتجنب إخضاعه لمراكز وأزمات وحالات من الاضطراب لا تتفق مع استعداده . وينبغى أن يكون شخص قصتهم مطابقا بالضبط لما هو حقيقة ، وألا يتقدم إلا فى حدود طاقته . كما أن حياته قد تكون خصبة بالانفعالات وقد تكون جدبة ، باختلاف ما يقضى به مركزه فى المجتمع . ومعنى هذا ، على الجملة ، أن من الممكن أن توجد حياة لا تقع فيها أية حوادث ، ولا يحتم أن يحتل فيها الحب والبغض والطموح والمال المركز الأول كما جرت بذلك العادة فى الأدب التقليدى ، وقد تنعدم فيها الدوافع التقليدية للقصص ، ولا يشترط فيها حتما تحقيق الروح القصصية عن طريق تلك الحيل البالية التى كثيراً ما استغلها كتّاب كثيرون مبتذلون ناجحون .

ينشأ منها أيضا أن هؤلاء الكتاب سيشعرون أنهم يدفعون بأنفسهم فى طريق يملؤها الشك والتساؤل . فهم يرفضون الاعتقاد بتبعية « الفرد » ، ولا يجرؤون على إصدار حكم أو على اتخاذ موقف . لا يطرون ولا يذمون ، بل يقتصرون على الافتراض . يعرضون مسائلهم دون أن يستبيحوا لأنفسهم الحق فى احتكار حلها . فلا هم دعاة إلى الأخلاق ولا إلى ما يناقض الأخلاق يحرصون

على ألا يكونوا خصائص الفرد قبل وجوده متأثرين بهذا الرأى أو ذاك ؛ وعلى ألا يفرضوا على هذا الفرد عقاباً ، وألا يهبوا له تعويضاً على غير أساس . يحترمون كل ما يقع تحت الحس من عمل أو لفظ ، وكل ما قد ينبث فى أعماق الأذهان من فكر أو رغبة ، ولكنهم ، إلى هذا ، يعرفون كيف يسبقون إلى الضحك من أنفسهم ، ومن تلك المهازل التى تجمع بين الجد والفكاهة الساخرة والتى يتنافس فيها اللهو والفجيعة بأعين الناس وهم لا يشعرون .

وقد أراد حسن الحظ أن هؤلاء الكتاب لم ينتظموا فى هيئة واحدة ؛ فهم لا يزالون قليلين يمكن إحصاؤهم على أصابع اليدين . ولعل من الأمانة أن نقرر أن أحداً منهم لما يستكمل شخصيته ، وأن كل ما قيل هنا عنهم سابق لأوانه إلى حد ما . ولعله يوجد بينهم فى المستقبل القريب واحد على الأقل يتقدم فى شجاعة إلى نهاية المغامرة .

ولا يعنينا أن تكون قد ذكرت بصدد هؤلاء الكتاب بعض عبارات غريبة تشير إليهم ، منها : المركب الشعرى ، والكتابة القاسية ، والتحليل البسيكولوجى بواسطة المشرط ، وأنتومولوجيا [1] الحوادث الحقيقية الضئيلة التافهة ، وفينومولوجيا [2] العمل ، وفلسفة علل الوجود على أساس ما وراء الطبيعة ، وإبراز الأشياء والألفاظ ، والصياغة الموضوعية ، وأعمال البطولة التى لا علّة لها ، والتطويف الذهنى ، والاعترافات غير المحتملة .

فلا بد مع ذلك أن تكون الضرورة التى دفعتهم فى هذا السبيل مطابقة لحاجة عامة ، حتى إنهم جميعاً قد حاولوا تصوير الانسان على صورة أكثر وضوحاً وأشد رسوخاً من الصور السابقة ، دون أن يتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأن يعتمد كل واحد منهم على غير وسائله الخاصة .

فما عسى أن تكون هذه الضرورة ؟

يجب فى مبدأ الأمر أن نتبيّن بوضوح قصور ما بين أيدينا من وسائل البحث البسيكولوجية . وإذا ألقينا نظرة إلى البسيكوجيا فى عهدها البدائى ، ولنفرض البسيكولوجيا ذات البعدين [3] (تلك التى نجدها عند لابروبير وبلزاك) او فى

---

(١) علم الحشرات . — (٢) علم الظواهر . — (٣) يستعير الاصطلاح الرياضى .

عهدها الحديث الراقى حين أصبحت ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة حين استكشفت أدق نظرياتها فى « الزمان والمكان » (وتلك التى نجدها عند ستندال وعند بروست) فاننا نزداد ثقة بألا يمكن تفسير شئ إذا أصررنا على استبعاد هذه الدراسات البسيكولوجية عن مكملها الفسيولوجى الذى لا غنى عنه .

والواقع أنه لا بد من تثبيت الإنسان بالتصور على قاعدة من الفِلّ (شأن الضفدع التى يشرحها الطالب فى قسم الحيوان) حتى يصل الكتّاب إلى أن يستخرجوا فى آن واحد انفعالات جسمية ونفسية ، وفيضاً غير متوقع من الألفاظ ، ومن الاضطرابات ، ومن التعقيدات العاطفية ، ومن الحرص المستتر ومن الجمجمة الغامضة ، ومن العادات السرية ، ومن الحركات العصبية ، ومن الحوادث التافهة . وهى كلها أمور أشد إفصاحاً عن الطبيعة العميقة الدفينة من أى شىء آخر .

وما عدا ذلك فسخف وتكلف للبيان . ولا يغيب أبداً عن بال هؤلاء الكتّاب أن سلوك الإنسان يعتمد أولاً على تكوينه الفسيولوجى . وهم يرون أن أقل قراز ، وأن أتفه عمل ، وأن الاستعداد النفسى مثل الميل الشديد ، وأن الرغبة الشاردة مثل التعنت والإصرار ، كل هذه الأمور خاضعة خضوعاً وثيقاً لحياتنا العضوية . وبعبارة أخرى إن من يتحدث عن طباع رديئة ، أو أحلام رديئة ، أو غرائز رديئة ، عن عيوب أو دوافع محركة ، عن ذائل أو فضائل ، يجدر به أن يتحدث عن تكوين جسم الإنسان . فليست المخلوقات شيئاً فى رأى هؤلاء الكتاب إلا بأعضائها الداخلية تسوسها وتبعث الحياة فيها . ومن هنا كان من السخف تقرير مسئولية الفرد أمام غيره . فمن ذا الذى يجرؤ جادًّا أن يعاقب عسر هضم ، أو احتقاناً كلويًّا ، أو قرحة ، أو انحرافاً فى الصحة ، أو روماتزما ، أو أرقاً ، أو حمّى ، أو هستيريا ، أو حالة ثمل ! ومن ناحية أخرى من ذا الذى يجرؤ أن يثيب صحة موفورة ، أو نشاطاً معويًّا مستمرًّا ، أو نوماً هادئاً ، أو عدم وجود اضطرابات على الاطلاق !... فالحر والبرد والجوع والعطش والحرمان من الهواء أو شدة الهواء وسهولة التمتع بحاسة البصر والشم والسمع واللمس أو صعوبتها ، كل هذه عوامل تفرض نفسها أيضاً على الإنسان وتساعد بطريق غير مباشر على أن يميل إلى السيرة المعتدلة أو المسرفة ، إلى

الخمود أو الهياج ، إلى الحسد أو عدم الاكتراث ، إلى الغباوة أو الحماسة الفكرية ، إلى الابتذال أو الرقة ، إلى الطيبة أو الشر .

واحترام مثل هذه المقتضيات فى ميدان الإنشاء الكتابى معناه إذن بالقياس إلى هؤلاء الكتاب التعمق فى بحوثهم والخروج بها عن الحدود المرسومة لها إلى الآن ، والبدء بانكار الذعر من الحوادث ، كما أنكر جان بولان الذعر من الألفاظ ، لأن كليهما يشلّ .

ومعناه تأكيد الحاجة إلى فن يقال فيه كل شئ ، هذا اللون من الفن الذى استحدثه ديوجين ، وكان أول أستاذ له فى العصور الحديثة مونتانى ، يشاركه فى ذلك شكسبير وسرفانتيس ، ويعتبر بروست وجويس أصدق ممثلين له فى هذه الأيام .

ومعناه الإلحاح فى المطالبة بحرية مطلقة أزاء المبادئ التقليدية ، للفن وللكاتب نفسه ، ولما يعرض من فلسفة وما ينشئ من دمى . ومعناه الرغبة فى التحرر نهائيا من الأوامر الباطلة ومن المبادئ الخلقية الملتوية . ومعناه إماطة اللثام عن الخداع المضنى الذى يخفيه الذين يمعنون فى إبقاء الإنسان فى رقه بدعوى الحياء والاحتشام . ومعناه مساعدة كل واحد فى التحرّر من الأغلال التى تمسكه ، فيتبيّن مدى ما يملك من حرية فى تعديل حياته إذا ما رغب فى ذلك وعرف كيف يتحد مع نظرائه وكيف يثبت فى مكانه . ومعناة إنماء حرية النقد التى تشجعه على ألاّ يذعر من النواطير . ومعناه آخر الأمر إنكار كل ما من شأنه استبقاء الأشياء فى مواضعها والآراء فى مخابئها والأطماع فى أعماق القلوب . معناه مهاجمة الراتعين الراضين الفاترين المسترخين الذين يرون أن كل شئ يمضى على أذلاله ، والذين يمنعون قلوبهم من أن تتأثر بالظلم وسوء النية لأنهم ينتفعون منهما .

ومعناه كذلك ، فى نحو آخر من التفكير ، احتقار الموضوع الذى يمارسه الفن . فكما أن بعض الرسامين اتفقوا على العدول عن نوع اللوحات التى تواضعت التقاليد عليها ، وعن اللوحات التاريخية والرمزية الكبرى ، ووجهوا عنايتهم إلى استخراج القيمة التصويرية أو الشكلية من رسم قيثارة أو برتقالة أو صدفة أو وردة ، بل من رسم مجموعة من البقع والأحجام والأسطر ، معرضين عن حكاية أى شئ كذلك يرى هؤلاء الكتاب أن لهم ، فى الميدان الأدبى ، أن

يهملوا ما كان مدينا للإطار والقصة والعقدة والموضوع ، وأنه يجب عليهم ، على العكس من ذلك ، أن يمعنوا فى تصوير الشكل الإنسانى نفسه ، والأشياء (ملموسة كانت أو غير ملموسة) وغمغمة الحديث والفكر ، والزوايا ، والمعادلات ، والأضواء التى تكشف عنها انفعالات الأحياء فى البيئة الاجتماعية والذهنية التى يضطربون فيها .

ولنسجّل مع ذلك بعض التحفظات .

فمهما قوى البغض للجزع من الواقع ، واشتدّ التمرّد على الأصول السخيفة التى تنظم ما يقال وما لا يقال ، ما يعمل وما لا يعمل ، ما يكتب وما لا يكتب ، فقد نستطيع أن نتبين بوضوح مقدار الضرر الذى يصيب الفن من الإصلاح الذى ينشده هؤلاء الكتّاب . فلا شك أن الرغبة المنظمة فى أن يقال كل شىء ، قد تستتبع ابتذالا فى اللغة ، فتنحطّ الآثار ويقلّ حظها من البقاء . وحسبك بتحريف اللغة وإفسادها كافياً لانحراف الأجيال المقبلة عما كتبوا .

ثم إن الكاتب إذا استبعد الجزع من الواقع حين يكتب ، فانه يتعرض للحدّ من ميدانه فى الشعور وفى التحليل النفسى ، كما يتعرض للابعاد فى التحليل العضوى والإسراف فى القحة ؛ ولا ينكر قصصى الواقع أخطار مثل هذه المحاولة . قد يؤخذ على بروست الإسراف فى الاذعان للغة الأكاديمية الرسمية وفى التقيد بشكل الجملة (وهذا الإذعان يحدّ بلا شك حظه من التوفيق) ولكن يؤخذ على جويس من جهة أخرى أنه حين حرص أشد الحرص على أن يواجه الحوادث ويستقصيها ويزدريها ويقول كل شىء ، قد صوّر الإنسان والعالم المحيط به فى صورة تنحلّ آخر الأمر إلى أعضائه الداخلية وإلى عقله . فكل شىء عنده مركز فى الحواس وفى العقل . وعبثاً نحاول أن نستكشف فى كتابته عاطفة أو ابتهاجاً أو حالة من حالات القلق أو طموحا نفسيًّا أو تردداً شعوريًّا يشبه ما نلقاه عند كتّاب بلغوا حظاً كبيراً من الرقة والدقة أمثال بوشكين أو أرلان . فعند جويس تطغى السخرية والبراعة الجافة للفكر على التأثر واضطراب النفس وتسودان دون غيرهما ، بحيث نشعر شعوراً جليًّا أنه لم يصوّر الإنسان كله بل نقص منه شيئاً .

قصصى الواقع يتمنّى إذن أن يبدد السراب الذى توجده أساطير الواقع . فهو يريد فنًّا يصل بدقته وجلائه وإفصاحه إلى قهر الأساطير الحديثة . يريد فنًّا

يحفظ للفظ جماله ووضوحه دون أن ينتقص من طرافته أو غرابته . يريد فنًا يحاول أن يبدّد هذا الإبهام السائد فى الأذهان ، فيها جم فى غير تردد أو هوادة تسلط الألفاظ والحوادث ، ويكافح فى سبيل إزالة الكابوس الذى يضلل الفكر ويغرقه ، لتقصر المسافة بعض الشىء بين الحق وبين أولئك الذين يلتمسونه فى الظلمة منذ عهد بعيد ، أولئك الذين عقدوا آمالهم بالحرية .

مجموعة جبران

نقلها إلى العربية الدكتور توفيق شحاته